النقوش على الجدران

تمثال ابن المستوفي في قلعة أربيل

من القلاع التاريخية والتراث العالمي في العراق

قلعة أربيل ... عبق التاريخ وتطلعات الحداثة

قلعة اربيل تقع في وسط مدينة اربيل في كردستان العراق يعود تاريخها إلى عصر الاشوريين والى حوالي الالف الأول قبل الميلاد، بنيت اساسا لأغراض دفاعية حيث كانت تعد حصنا منيعاً لمدينة اربيل في تلك الحقبة الزمنية. وكانت قلعة اربيل في بادىء الامر وعند انشائها تضم المدينة بالكامل.

ويوجد في الواجهة الامامية للقلعة تمثال لابن المستوفي. وكان مؤرخاً واديبا ووزيرا في اربيل في حقبة السلطان مظفر الدين كوكبري.

قال ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان»، عن مدينة اربيل واقعتها : ان اربيل هي قلعة ومدينة كبيرة في فضاء واسع من الارض. اصبحت القلعة مقرا للامير الاتابكي سنة 539هـ.

يبلغ ارتفاع القلعة 415 م عن مستوى سطح البحر، ويبلغ ارتفاعها حوالي 26 م عن مستوى سطح المدينة، اما مساحتها فتبلغ 102.190 متر مربع. ولقد تسبب كهريز قلعة اربيل في إجهاظ حصار هولاكو المغولي لها حيث تزود منه أهلها بالمياه اثناء الحصار وعن طريقه كانوا يخرجون منها ليعودوا بالمؤن إليها ذلك اللغز الذي عجز هولاكو عن فهمه مما أدى إلى فك حصاره عنها والانسحاب منها.

في 26 أبريل 2006 دمر أحد جدرانها الذي يقع في مواجهة بناية «محافظة أربيل».

سميت المدينة باربيل لأن القلعة كانت اسمها اربايلو والمنطقة التي فيها القلعة كان اسمها قبل إنشاء القلعة عليها «اراستيوم» حيث كان هذا أحد الأسماء الاشورية القديمة وكلمة اربيل ماخوذه من «اربايلو» يعني الالهه الأربعة في اللغة الاشورية وسميت بالقلعة لانها كانت عالية وكانت أشبه بالدرع في الحرب، وعدا عن كونها معلما أثاريا ومعماريا قديما فانها ايضاً تحوي العديد من المباني والآثار الأخرى التي تحكي قصصا عن مراحل مختلفة وشخوص مشهورا عبر تاريخ المدينة فلا زالت عالقة في اذهان اهالي المدينة المعمرين. ولقد اصبحت قلعة أربيل جزءا من التراث العالمي بقرار من منظمة اليونسكو التابعة للامم المتحدة وهي تشهد حالياً اعمال ترميم واسعة.

في قلب مدينة اربيل، في إقليم كردستان العراق، تقبع تلة قديمة يبلغ ارتفاعها ما بين 25 إلى 30 مترا فوق سطح الأرض. على قمة هذه التلة تقع واحدة من أقدم المدن في العالم. والمعروفة باسم قلعة أربيل.

تبلغ مساحة هذه المدينة المحصنة 102 الف متر مربع، وتقع في منطقة شهدت احتلالا مستمرا منذ ما لا يقل عن 5 الاف سنة قبل الميلاد.

اللون الأصفر الرصاصي للقلعة والجدار المحصن المحيط بها يمنحها مشهدا فريدا في منطقة الشرق الأوسط.

تضم التلة المحصنة حوالي 100 منزل تقليدي تم بناؤها متجاورة فيما بعضها لتشكل جدارا محصنا يشبه إلى حد الكبير القلاع المحصنة في العصور الوسطى ويمكن الوصول إليها من خلال متاهة من الأزقة الضيقة. كما تضم التلة ثلاثة سلالم على منحدراتها الشمالية والشرقية والجنوبية، تؤدي إلى أبواب المنازل الخارجية المبنية على الحافة. في الأصل، لم يكن هناك سوى منحدر واحد هو المنحدر الجنوبي الذي يطل على بوابة ضخمة مقوسة تؤدي إلى ساحة صغيرة مفتوحة، والتي بدورها تؤدي إلى أربعة أزقة رئيسية متشعبة في كل الاتجاهات مثل أغصان الشجرة.

رغم صغر حجمها، تم تقسيم القلعة إلى ثلاث مناطق هي سراي والتكية وطوبخانة. احتلت العائلات الكبيرة والبارزة منطقة السراي، وخصصت منطقة التكية لمنازل الدراويش، ويعيش في طوبخانة الحرفيون والمزارعون.

خلال العشرينات، كان هناك حوالي 500 منزل داخل القلعة. وبدأ عدد السكان يتخفض تدريجيا خلال القرن العشرين عندما انتقل السكان الأكثر ثراء للعيش خارج القلعة في منازل أكبر بها حدائق.

وفقا لتعداد عام 1995، بلغ عدد سكان القلعة 1600 نسمة يعيشون في 247 منزلا.

وقد اعترفت حكومة إقليم كردستان بأهمية القلعة، وهي تعمل حاليا مع اليونسكو لحماية وصيانة هذه الجوهرة المعمارية. ففي عام 2007، تم ترحيل سكان القلعة لبدء أعمال البناء والترميم. وسمح لعائلة واحدة مواصلة العيش في القلعة حتى لا تفقد القلعة لقبها كأقدم قلعة مؤهلة بالسكان منذ 8000 عام وتخطط الحكومة لنقل 50 أسرة للعيش في القلعة فور الانتهاء من أعمال الصيانة.

تعد قلعة اربيل اقدم قلعة تاريخية سكنها البشر منذ اقدم الازمنة وحتى يومنا هذا، وقد بنيت اساسا، في عهد الأشوريين والى نحو الالف الأول قبل الميلاد، لأغراض دفاعية، إذ كانت تعد حصنا منيعا للمدينة المسماة باسمها في تلك الحقبة الزمنية وحتى عصور متاخرة.

يقول بعض المؤرخين ان قلعة اربيل كانت في بادئ الامر وعند انشائها تضم المدينة بالكامل.

وذكرها ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» فقال: اربيل هي قلعة ومدينة كبيرة في فضاء واسع من الأرض، أصبحت القلعة مقرا للامير الاتابكي سنة539هـ.

وسائل دفاع مصطنعة

يبلغ ارتفاع القلعة «415»م عن مستوى سطح البحر و«26»م عن سطح المدينة، بنيت على بقعة مساحتها مائة وعشرة الاف متر مربع وكان فيها اكثر من«800» عائلة اي مايقارب «4000»نسمة.

ولقد تسبب بئر «كهريز» في القلعة في اجهاض حصار هولاكو المغولي لها. إذ تزود منه اهلها بالمياه اثناء الحصار وعن طريقه كانوا يخرجون منها ليعودوا بالمؤن إليها فكان لغزا عجز هولاكو عن فهمه ما أدى إلى فك حصاره عنها والانسحاب منها.

ولأن مدينة اربيل تقع على مفترق طرق مهمة لهذا كانت محط انظار الغزاة وقد توالت عليها الغزوات وخضعت للعديد من الامبراطوريات من اليونانية والمقدونية والفارسية والتركية وغيرها. لهذه الاسباب فكر اهالي المدينة منذ البدء بانشاء مدينتهم على تلة اصطناعية تحميهم من هذه الغزوات خاصة بعد افتقارهم لوسائل الدفاع الطبيعية من الانهار والجبال وبذلك انشئت قلعة اربيل على تل اصطناعي عال حيث احيطت القلعة بجدار مرتفع ومنيع مع حفر خندق ماء عميق حول القلعة في اسفلها وعمل سكانها على تامين الاكتفاء الذاتي لاحتياجاتهم اليومية عبر حفر بئر عميقة من سطح القلعة حتى منبع المياه في الاسفل كما امنوا الغذاء وبقية مستلزمات الحياة من مسجد وحمام ومدرسة وغيرها.

قلعة أربيل

توافد الزائرين اليها

تعاقب الحضارات

تعاقبت الحضارات التاريخية القديمة على القلعة، باعتبارها مركزا للحكم ومدينة مأهولة بالسكان، منها الحضارات السومرية والاكدية والأشورية والفارسية، وهناك الكثير من الدلائل التي تؤكد وجود آثار أخرى مطمورة تحتها.

ويقع في مدخل القلعة الرئيس تمثال ابن المستوفي وهو مبارك بن احمد شرف الدين. كان مؤرخا ووزيرا في اربيل في حقبة السلطان مظفر الدين كوكبري ولد ابن المستوفي في سنة 564 هجري الموافق لسنة 1169 ميلادي في قلعة اربيل وتوفي فيها سنة 637 هجري الموافق لسنة 1239 ميلادي، وكان ضليعا في مجالات التاريخ والأدب واللغة وله نتاجات كثيرة اهمها كتابه «تاريخ أربيل» في اربعة اجزاء.

اثر عالمي

وقعت محافظة اربيل اواخر العام الماضي عقدا مع منظمة اليونيسكو بقيمة «13» مليون دولار لتنفيذ مشروع تطوير القلعة، وقد شكلت المحافظة هيئة خاصة بهذا المشروع بالتعاون مع المنظمة، ويقضي المشروع بإعادة ترميم «10» دور سكنية على البدن، فضلا عن بناء«40» دارا اخرى داخل القلعة معظمها ستكون دورا تراثية، إلى جانب إيصال خدمات البنية التحتية لتلك الدور، اما في الخارج فهناك خطط لإنشاء منطقة خضراء حول القلعة «فري زون»، وتشمل الأحياء الشعبية القديمة مثل محلتي التعجيل والعرب وكذلك محلة خانقاه.

وتتجه المخططات إلى إخلاء أطراف القلعة من البنايات الحاجبة لهذا الأثر العالمي، والعمل على إبرازه بالشكل المطلوب، وادرجت القلعة مؤخرا على القائمة المؤقتة لليونسكو وهو ما سيرشحها للدخول إلى اللائحة الدائمة وستعامل كمعلم اثري عالمي، ما يسهل تنفيذ الكثير من مشاريع تطويرها وتحديثها.

تراث وحداثة

المتجول حول القلعة لا بد ان تجذبه الأزقة الضيقة والمتشعبة المحيطة ببنائها. فتلك الأزقة تعد من أقدم الاسواق المسقفة في المدينة، وهي تعج بمختلف البضائع والسلع والحاجيات، لاسيما تلك التي لا توجد إلا في كردستان فقط كالكرزات بانواعها، وابرزها الجوز واللوز، ومشتقات الحليب واشهرها «لبن اربيل» و «جبن الاوشاري»، والحلويات الأكثر استهلاكا كالعسل و «من السماء» «والحلقوم المحلي».

كما ينتشر حول القلعة الكثير من المحال المختصة ببيع نوادر المقتنيات كخواتم الفضة المرصعة بالاحجار الكريمة النادرة والساعات القديمة، ومسابح «اليسر، والكهرب، والباي زهر»، وكذلك المحال المختصة ببيع الأزياء الكردية التقليدية التي يقبل عليها السواح من كل مكان.

علاوة على ذلك، يحيط القلعة الكثير من المتاجر المختصة ببيع الاجهزة الكهربائية والالكترونية الحديثة كالهواتف النقالة، ولعب الاطفال الالكترونية كـ«الاتاري» والـ«أكس بوكس»، تتخللها محال بيع الأزياء والساعات والعطور الحديثة. وغير بعيد عن كل هذا شارع المكتبات الذي يضم الكثير من الكتب القديمة والحديثة وبلغات عدة. وليس ببعيد كذلك على الزائر الذهاب إلى احدى مقاهي اربيل العابقة بأريج التاريخ والتراث، لا سيما مقهى «مجكو» التي تقع اسفل القلعة، وهي ملتقى الأدباء والفنانين والمثقفين، وكذلك مقهى «مام خليل» ومقهى «قرداران»، وهي مقاه أسست في اواسط خمسينات القرن الماضي.

وتشهد مدينة اربيل حملة اعمار واسعة، إذ ستتغير معالمها لمن يزورها مستقبلا. فهناك اسواق حديثة متعددة الطوابق «مولات» ترتفع هنا وهناك وشوارع ومجسرات جديدة. وهناك حدائق ونافورات تنتشر في كل مكان تنعش القلب والنفس.

مدخل القلعة

منظر عام لقلعة أربيل

من داخل القلعة

ناقورات القلعة